حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

التربية القرآنية

وأثرها في التنمية البشرية

بقلم
د. عبد الحكيم الأنيس
إدارة البحوث

التربية القرآنية
وأثرها في التنمية البشرية

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
www.iacad.gov.ae mail@iacad.ae

الترقيم اللغوي
شروق محمد سلمان

إخراج
يحيى الأمين حسين يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: هذا موضوعٌ كبيرٌ تنطوي تحته جزيئات كثيرة، ولا شك أن القرآن يحتوي على منهجٍ تربويٍّ عظيمٍ أخرجَ الإنسان من بناء صنمٍ يعبده من تمر إلى بناءِ حضارةٍ شامخة، وصنعِ ثقافة خالدة.

وأريدُ هنا أن أشير إلى ثلاثة معالم من معالم هذه التربية:

المعلم الأول: اهتمام القرآن بالعدل والإحسان وأثر هذا في التنمية البشرية:

الناظرُ في كتاب الله يجد اهتمامًا واضحًا بإشاعة العدل وتحقيق

الإحسان، ويكفي أن نقرأ الآية التسعين من سورة النحل، وهي قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾.

هذه الآية من الآيات التي كان لها شأن في تاريخ الدعوة، وهي من مفاخر الإسلام والمسلمين، وعنوانٌ بارز لهذا الدين، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يقرؤونها على من يدعونه إلى الإسلام.

وقال أبو طالب المكي - ونقله ابنُ عجيبة في تفسيره «البحر المديد»-: (هي قطب القرآن).

وقد كان نزولُها سببًا في إسلام عثمان بن مظعون كما جاء في «مسند» الإمام أحمد.

وقرأ النبي ﷺ هذه الآية على وفد من بني شيبان بن ثعلبة، وعلى رسل أكثم بن صيفي، وعلى الوليد بن المغيرة.

وكذلك فإنّ عثمان بن مظعون قرأها على عم النبي ﷺ أبي طالب.

ومرَّ عليُّ بن أبي طالب بقوم يتحدثون فقال: فيمَ أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عز وجل في كتابه إذ يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾.

فالعدل: الإنصاف، **والإحسان:** التفضُّل، فما بقي بعد هذا ؟

وجاء عن عبد الله بن مسعود قوله: إنّ أجمع آية في القرآن لخيرٍ أو شر، آية في سورة النحل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾.

وقد يُقال: فما علاقة هذا بالتنمية البشرية؟

فأقول: العلاقة وثيقة، والرابطة حقيقية، فإذا كان من مهام التنمية البشرية العمل على إيجاد الإنسان **الصحيح في جسمه، السويّ في نفسه، الجادّ في عطائه**، فإنّ شيوع العدل في المجتمعات يصبّ في هذا الاتجاه تمامًا.

إنَّ الإنسان الذي يعيش في مجتمعٍ عادل سيحظى بفرص متكافئة في التعلم، وفي العناية بصحته، وفي توفير موردٍ كريم له.

ومِثْلُ هذا الإنسان - عند ذلك - لن يتخبط في ظلمات الجهل، ولن يهوي إلى دركات المرض، ولن يعاني همَّ العيش.

وكلنا يعلم أنَّ الجهل والمرض والفقر هي أساس البلاء، وسبب التخلُّف.

ويحسُنُ أن أشير هنا إلى أنَّ العدل لا يوفّر الفرص المتكافئة للإنسان في العناية بصحته الجسدية فحسب، بل مِنَ المهم جدًا أنَّ العدلَ يُوفّر للإنسان الأجواءَ النفسية الصحية أيضًا، وإذا رأى الإنسانُ أنه يَحظى بمثل ما يحظى به الآخرون، ويُعامَل بما يُعامَل به الآخرون هدأتْ نفسُه واستقرّ، ولم تجد الأزماتُ النفسيةُ إليه سبيلاً، والإنسانُ المتأزم يعاني صراعاتٍ داخليةً تُشتِّتُ فكره، وتُربكُ أمره، وتُضيِّعُ عمره، فلا ينتفع بحياته، ولا يستمتع بها، ولا يريد لغيره أن ينتفع ولا أن يستمتع، والإنسانُ المتأزم لا يمكنُ أن يعملَ أو يُنتجَ أبدًا.

إنَّ العدلَ إذن ينتزعُ كذلك من نفس الإنسان الشعورَ بالظلم، والشعورَ بالغبن، والشعورَ بالنقص، ويرتقي به إلى أنْ يكون إنسانًا سويًا، إنسانًا منتجًا فاعلاً، ينفعُ ولا يضرُّ، ويُقدم ولا يُحجم، ويُعطي ولا يَبخل.

وإذا توَّج العدلَ الإحسانُ كان ذلك بمثابة التشجيع والدفع إلى الأمام، والإنسانُ جملةُ مشاعر، تهزُّهُ الكلمةُ، ويثيرُهُ الثناءُ، ويحركُهُ الشكرُ، وإذا أُضيف إلى هذا (الإيتاءُ) فلنا أنْ نتصوَّر أي إنسانٍ سيكون لدينا.

وقديمًا قال الحسنُ البصري:

« إنّ استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها في الآية، واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها ».

وفي هذا يقول ابنُ جعدويه في «مرآة المروآت»:

« فثمرةُ العدل: البقاء، وثمرة الإحسان: الحمد والثناء، وثمرة الإيتاء: الألفة والنماء ».

وبعـدُ: فلعله من خلال هذه الإلمامة السريعة يكون قد اتضحَ لنا بعضَ الاتضاح أثرُ العدل في تكوين إنسانٍ صحيحٍ في نفسه وجسمه، متينٍ في عمله، مستقيمٍ في فهمه، متزنٍ في تصوراته وخطواته، لا يستطيع المتربصون أنْ يجدوا فيه ثغرةً ينفذون منها إلى استغلاله واستثارته، وتدميره وتضييعه وإضاعته.

العدلُ والإحسانُ والإيتاءُ إذن سبيلٌ أمثل إلى الإنسان المطلوب، الإنسان الذي يَبني ولا يَهدمُ، ويُحبُّ ولا يَكرهُ، ويَبتسمُ ولا يَنتقمُ.

المعلم الثاني: تغذيةُ الإحساس بقيمة الزمن:

ومن التربية القرآنية ودورها في التنمية البشرية:

تغذيةُ الإحساس بقيمة الزمن مِنْ خلال الإقسام به على صور شتى: إقسامًا عامًا أو مخصوصًا بجزء منه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾.

قال ابن عباس: « العصر هو الدهر ».

وقال الشوكاني: « أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر، لما فيه من العِبَر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ».

وقد ضرب الإنسانُ القرآنيُّ أعظمَ الأمثلة في معرفته بقيمة الوقت وشرفه، والتفاني في الحفاظ عليه والإفادة منه، وذلك في المجالات كافة: علمية وأدبية وحضارية وثقافية، وفي هذا يقال:

نحن قــومٌ أعـزَّنـا اللهُ بالديـ
ـن وذلَّــتْ بذلـك الأعـداءُ
(أمةٌ خير أمـة أُخرجتْ للنـ
ـاسِ والنّاسُ بعدهـا أكفاءُ)
أين كـسرى وأين قيـصر ممّـا
سطرتـْهُ الصّحابُ والخلفاءُ ؟
ذُهِلَ الكــونُ إذ رأى أثمـارًا
أنتجَـتـْهـا بلادُنـا الخضــراءُ
فاضَ مـنـا العطاءُ في كل وادٍ
وتوالــتْ فتوحُـنـا الغَــرّاءُ
وتنـادى العـبادُ مـن كُلِّ فـجٍّ
ذلـك الحقُّ ليـس فيــه خفاءُ
ما مضى القرنُ إذ غدونا بحقٍّ
سـادةَ الأرض وانحنى الخصماءُ
ومضينـا نبنـي الحيـاةَ فقامتْ
في قلــيـلٍ حـضـارةٌ شَــمّـاءُ

فإذا القفــرُ جــنــةٌ غــنــاءُ

وإذا الجهــلُ نهضــةٌ وارتقــاءُ

وإذا الحــربُ والنــزاعُ ســلامٌ

وإذا الكــرهُ بســـمةٌ وإخــاءُ (١)

ولو نظرنا في الجانب العلمي لدى المسلمين، والكتبِ التي ألَّفها العلماءُ في العلوم والفنون والآداب كافة لرأينا ما يُثير العجبَ والإعجاب.

وها هي آثارُ المسلمين اليومَ تملأ مكتبات الشرق والغرب ممّا يقدّر بالملايين، وغير خفيٍّ أنّ من أسباب هذا النجاح وهذا العطاء الكبير حسن استغلال الوقت، والإفادة من دقائقه وثوانيه، فضلاً عن ساعاته وأيامه ولياليه .

ومن المفيد أنْ أشير هنا إلى ما كتبه عالمان عَلَمان في سعة التأليف عند المسلمين، وهما الأمير شكيب أرسلان في مجلة «المشرق»، والأستاذ محمد كرد علي في مجلة «المقتبس» قبل مئة عام، وقد تواردا على عنوان واحد هو سعة التأليف عند المسلمين، واليوم ظهر ما لم يظهر، وعُرف ما لم يُعرف.

(١) الأبيات من قصيدة للكاتب.

وهذه فكرة جديرة - فيما أحسب - بتتبع جذورها وآفاقها في القرآن، لبيان قواعدها ومنطلقاتها وضوابطها.

أجل إنَّ الإنسان القرآني أصبح في كل القرون يحرصُ على وقته أشدَّ من حرص الإنسان على ماله، لأنَّ الوقتَ هو أساس النجاح والفلاح.

فإذا أحسنّا فهمَهُ وتنظيمَهُ، وعرفنا قيمته وفضله، وبادرنا إلى استغلاله واستثماره، ولم نركنْ إلى الدَّعة والبطالة، ولم نُسْلم قيادنا إلى التواني والتسويف، نكونُ عند ذلك قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح الذي يؤدِّي بنا إلى أفضل النتائج، وأجلِّ الغايات.

إنَّ اهتمام القرآن والسُّنة بالوقت يجعلنا نتمنى أن يكون له (أي للوقت) مقررٌ دراسيٌّ تتناولُ مفرداتُهُ كلَّ ما يتعلق به في الماضي والحاضر، وأثرَهُ في الأمم والشعوب، وأهميته في الحضارات والثقافات، وارتباطَهُ الوثيق بالعلوم والآداب والفنون.

وليتنا نعلم أنَّ (ثانيةً) واحدةً هنا قد يقابلُها في الآخرة (مليار)

سنة في النعيم، أو في العذاب، أقول هذا من باب التقريب لبيان قيمة هذه (الثانية)، وإلا فالآخرة لا حدَّ لها، والمقابلة - عند ذلك - غير دقيقة. فلنستحضر ونحن نعيش هذه الثواني في عملٍ صالحٍ نافعٍ - أو غير صالح نافع لا قدر الله ذلك - ما سنعيشه بناءً عليها في الآخرة من ثواب أو عقاب.

إن الوقت جدير حقاً بالعناية والرعاية والاهتمام فهل نوليه ذلك ؟ وإنه أغلى من كنوز الدنيا.

يقول الشيخ مُحَنْض بابه الديماني الموريتاني:

فاعقلْ ولا تضيـع العُمْرَ القصيرْ
وراقـبِ البصـيرَ واذكرِ المصيرْ
وضُـنَّ بالأنفاسِ إنَّ الأَنْفَسـا
ممّـا تـراه لا يُسـاوي نَفَسـا

فهل ترانا نقدِّر قيمة هذه الأنفاس ؟

المعلم الثالث: زرعُ الإحساس بالآخرين، وحبهم، وحب الخير لهم، والسعي في نفعهم:

ويتجلى هذا في كثير من النصوص الشرعية، والحديث في ذلك يطول، وحسبي الاكتفاء بإلماعة من ذلك، وهي الشكر نيابة عن الآخر.

وقد يبدو هذا الكلام غريباً، ولكن لماذا العجلة؟ فتعال معي - أخي القارئ - إلى أفق جميل من آفاق الإسلام الرحيبة:

قال تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. [الأحقاف:١٥].

أريدُ أنْ أتوقف عند هذه الجملة ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ التي

تدلُّ على هذا المبدأ الرفيع، ذلك هو: الشكرُ نيابةً عن الغير، وحبُّ الآخرين، والسعيُ الدائب فيما يعودُ بالخير عليهم.

واستنباطُ هذا المبدأ من الآية دلَّني عليه فهمٌ جميلٌ، فهمه العالمُ الفقيهُ المفسِّرُ الوزيرُ الصالحُ ابن هُبَيرة الدُوري (ت ٥٦٠ هـ) إذ يقول في خواطره في القرآن على هذه الجملة ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾:

« هذا من تمام برِّ الوالدين، كأنَّ هذا الولد خاف أن يكون والداه قصَّرا في شكر الرب عز وجل، فسألَ الله أن يُلْهمه الشكرَ على ما أنعمَ به عليه وعليهما، ليقومَ بما وجب عليهما من الشكر إن كانا قصَّرا ».

ما أجملَ هذا الفهم، وما أحسنَ هذا الاستنباط، وما أرفعَ هذا الشعور!

ثم لم ألبثْ أن وجدتُ هذا المبدأ - وهو الشكر نيابةً عن الغير لتبقى النعمةُ عليه وتزداد - في كلام النبي المعلِّم الرؤوف الرحيم ﷺ - وهو مِنْ توافق الكتاب والسُّنة - وكن معي:

روى أبو داود والنّسائي وغيرُهما عن عبد الله بن غنّام عن رسول الله ﷺ قال:

« مَنْ قال حين يُصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة، أو بأحدٍ من خلقك، فمنكَ وحدكَ لا شريكَ لك، فلكَ الحمدُ ولكَ الشكر. إلا أدَّى شكرَ ذلك اليوم ».

هكذا يُعلِّمنا رسولُ الله ﷺ ويحضنا أَنْ نقول: اللهم ما أصبح بي من نعمة، أو بأحدٍ من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر ...

إنَّ الشعور بفضل الله يغمرُ فؤادَ النبي ﷺ .

وإنَّ حبَّ الخير للناس يشغله، فلهذا فهو يُعَلِّمنا أنْ نشكرَ الله عن أنفسنا، وعن غيرنا، لتبقى النعمة لنا وله.

وإنَّ لذلك أثراً كبيراً نستفيدُه من قول المفسِّر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ) إذ قال: يُقال: « إنه ليكون في المجلس الرجلُ الواحدُ يحمدُ الله عز وجل فتُقضى لأهل ذلك المجلس حوائجهم كلهم ».

فحمدُ الرجلِ الواحد يَسري خيرُه عليه وعلى جلسائه، فكيف إذا شَكَرَ الإنسانُ عن نفسه، وعن والديه، وعن كلِّ مَنْ أصبح بنعمةٍ من الله؟ إنَّ هذا الشكر لا بُدَّ مقبول، وله الأثر العظيم.

ويقربُ من هذا الباب قولُ الملائكة:

﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ... ﴾. [غافر:٧].

الملائكة تدعو للمؤمنين بالمغفرة لما عسى أنْ يكون قد وقعَ منهم.

وهكذا يتشابكُ هذا الكون والوجود: الإنسانُ يدعو لأبويه ويشكرُ عنهم، ويشكرُ كذلك عن جميع الناس خشيةَ أنْ يكونوا قصَّروا أو غفلوا، والملائكة تدعو لهم بالمغفرة.

نعم إنه لا موضعَ في صفوفنا لأناني قصيرِ النظر.

وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله القائل:

« لا يُؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ».

والقائل:

« المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس ».